دروس ما بعد الحرب: إسرائيل - حزب الله- والمقاومة الفلسطينية

د. سناء حمودي

* أكاديمية وباحثة من لبنان

* -استاذ مساعد – العلاقات الدولية- جامعة بيروت العربية

المقدمة

تعد (الحرب) المرحلة الأخيرة من مراحل العملية السياسية، يلجأ إليها المتنازعون عندما تصبح خياراً حتمياً لحل النزاع بعد أن تفشل السياسة في ذلك، ولهذا تستخدم القوة العسكرية عندما تفشل السياسة. لكن الحرب في المنطقة العربية لها منطق آخر، ويعود ذلك إلى وجود إسرائيل، الكيان الغريب الذي زرعته قوى الاستعمار في قلب المنطقة، ليشكل حاجزاً جغرافياً وسياسياً يمنع الوحدة، ويتخذ من سياسة التوسع والاحتلال منهجاً بعد الاستيلاء على فلسطين.

ومنذ ظهر مصطلح القضية الفلسطينية بعد نكبة 1948، دخلت المنطقة في نفق الصراع العربي– الإسرائيلي الذي بات سبباً ومسبباً لكل الصراعات والحروب في منطقتنا بشكل مباشر أو غير مباشر. وبما أن (إسرائيل) كيان دخيل مغتصب لأرض فلسطين، ولأن مخططات الحركة الصهيونية تفوق الرقعة الجغرافية لفلسطين، باتت النزاعات والحروب عنواناً لمنطقة الشرق الأوسط بامتياز.

تبيح العقيدة التوسعية التي تحكم السياسة الإسرائيلية، الحرب بحجة حماية الأمن القومي والحفاظ على الدولة العبرية بقطع النظر عن أية اعتبارات أخرى. وانطلاقاً

من هذا المفهوم، دخلت إسرائيل، منذ قيامها عام 1948، في سلسلة من الحروب مع الدول العربية كان هدفها المباشر الدول المحيطة أي سورية والأردن ومصر ولبنان، والعالم العربي بشكل عام. وقد شهدت الأعوام 1956 و1967 و1973 ثلاث حروب خاضتها إسرائيل مع مصر وسورية والأردن شاركت فيها جيوش الدول المذكورة، فضلاً عن قوات من معظم الدول العربية الأخرى، علاوة على اجتياح لبنان عام 1982، حيث كانت الحرب المعلنة على منظمة التحرير الفلسطينية.

وعلى مدى ما يقرب من الستين عاماً حققت إسرائيل مكاسب عسكرية وسياسية وجغرافية كبيرة على حساب العرب

لم تخسر إسرائيل حرباً خاضتها أو شنتها، وكانت الانتصارات المتوالية كافية لتزيد من درجة الشعور بالقوة والثقة بقدرة الجيش الإسرائيلي وتفوقه في مواجهة القدرات العسكرية المتواضعة للدول العربية. ولم يقتصر الأمر على إسرائيل، بل إن القيادات العربية نفسها، كانت تقتنع مرة تلو المرة بتفوق القدرات العسكرية الإسرائيلية على قدرات أية دولة عربية، حتى بات المناخ العام يجزم بالهزيمة في الجانب العربي في حال وقوع مواجهة أو حرب مع إسرائيل، نستثني هنا معركة الكرامة التي جرت عام 1968 عندما دخلت القوات الإسرائيلية إلى قرية الكرامة على الضفة الشرقية لنهر الأردن، ودارت معركة قاسية استخدمت فيها إسرائيل مختلف الأسلحة وشارك فيها الجيش الأردني والفدائيين الفلسطينيين. وكانت المفاجأة أن تمكن الجانب العربي من صد الهجوم ما اضطر الجيش الإسرائيلي إلى سحب قواته متكبداً خسائر كبيرة. وكان من نتائج معركة الكرامة، التأييد الشعبي الكبير لحركة فتح وللمقاومة، والشعور باستعادة الكرامة العربية بعد هزيمة 1967. وعلى مدى ما يقرب من الستين عاماً حققت إسرائيل مكاسب عسكرية وسياسية وجغرافية كبيرة على حساب العرب، فتمكنت من إقامة دولة قوية مدعومة من الولايات المتحدة الأميركية ومعظم الدول الغربية، وبات جيشها من أقوى الجيوش في المنطقة. وبهذه القدرات استطاعت أن تحتل أراض عربية في سورية ومصر ولبنان خارج حدود فلسطين التاريخية، ثم تحولت إلى إقامة سلام مع مصر والأردن مخرجة الدولة العربية الأقوى، أي مصر، من دائرة الصراع، وبذلك تم حصر الاهتمام العسكري في الجبهة الداخلية في الضفة الغربية وقطاع غزة والجبهة الخارجية الوحيدة ◄

المتبقية على الحدود الشمالية لفلسطين المحتلة، أي لبنان.

في عام 1982، حققت إسرائيل هدفاً استراتيجياً غيّر قواعد اللعبة في المنطقة، بعد اجتياح لبنان وإخراج منظمة التحرير الفلسطينية وقواتها العسكرية من لبنان، وتوزيع مقاتليها على دول عربية بعيدة جغرافياً عن إسرائيل، كالسودان واليمن وتونس، وبذلك ارتاحت إسرائيل من عدو قابع إلى جوارها وأقفلت جبهة كانت تشكل مصدر قلق وتوتر دائم لها. ولم تكتف بذلك، بل قامت بتوسيع الشريط الحدودي الذي أقامته في العام 1978 على الحدود مع لبنان، لتصبح مناطق جنوبية واسعة تحت السيطرة الإسرائيلية بواسطة ما عرف بقوات جيش لبنان الجنوبي.

إنّ حرب 1982 كانت مقدمة لتغيير الأوضاع في المنطقة، ولقلب الصورة رأساً على عقب، وإنّ اتفاقيات أوسلو التي وقعت في العام 1993، وما تلاها من اتفاقيات سلام مع الأردن، كانت نتيجة لهذه الحرب، إلا أن هذه الحرب أفرزت ظاهرة أخرى، ربما أخطأت إسرائيل في تقديرها.

تجدد الصراع: اللاعبون الجدد

في بداية العام 1965، أعلن الفلسطينيون الكفاح المسلح، وشكلت انطلاقة حركة فتح في بداية العام عنواناً لمرحلة جديدة عنوانها تحرير فلسطين عن طريق المقاومة المسلحة. وإذا كانت هذه المقاومة استقطبت قوى التحرر العالمية، وشكلت العنوان لمرحلة من الزمن امتدت حتى العام 1982، إلا أنها لم تتمكن من تحقيق هدف التحرير لأسباب كثيرة لا مجال لذكرها، برغم العمليات العسكرية الكثيرة والمتنوعة التي قامت بها الفصائل الفلسطينية، والتي شكلت عاملاً مهماً ومساعداً على لفت الأنظار الدولية إلى القضية الفلسطينية.

في خريف 1982 كانت صورة الوضع بالنسبة إلى الإسرائيل على الشكل الآتي:

- انتصار ساحق على المقاومة الفلسطينية في لبنان.
- إلحاق الهزيمة بكل القوى المعادية لإسرائيل والتي كانت ترفع شعار المقاومة.
- انتهاء مرحلة الحروب بعد تحقيق الأمن على الجبهة اللبنانية، فيما بقيت الجبهة السورية خاضعة لاتفاقيات الهدنة.
- الاستعداد لمرحلة السلام القادم مع بقية الدول العربية، تمهيداً لحل القضية الفلسطينية وفق المنظور الإسرائيلي- الأميركي.

المقاومة مجدداً

لكن الأمور لم تسر وفق ما اشتهت إسرائيل، إذ ظهرت حركة مقاومة جديدة بعنوان لبناني هذه المرة كان على رأسها (حزب االله)، فيما اشتدت حركة المقاومة الفلسطينية في الداخل وقويت بعد الانتفاضة الأولى في العام 1987 عندما أعلن عن قيام (حركة حماس). ومرة أخرى، وجدت إسرائيل نفسها في مواجهة عسكرية من نوع آخر مختلف مسرحها الجبهتين اللبنانية والفلسطينية، وانتقلت إسرائيل من مهاجمة الجيوش العربية، إلى مواجهة المقاومة المسلحة. وإلى العام 2012، شنت إسرائيل، المعارك والهجمات العديدة، فضلاً عن ثلاثة حروب، ضد لبنان وقطاع غزة حملت أسماء: حرب لبنان الثانية وعملية الرصاص المصبوب وعملية عامود السحاب.

وانتقلت إسرائيل من مهاجمة الجيوش العربية، إلى مواجهة المقاومة المسلحة.

في هذه الحروب الثلاثة، كانت إسرائيل الطرف المهاجم، الذي يملك الخطط العسكرية المعدة مسبقاً بانتظار الفرصة المناسبة للتنفيذ. وغالباً ما تتضمن هذه الخطط ما يُسمى "بنك الأهداف" الذي تضعه القيادة الإسرائيلية في كل عملية عسكرية، إذ يقاس مدى نجاح العملية بمدى تحقيق هذه الأهداف.

لا بد من الإشارة هنا، إلى أن إسرائيل تعتمد في حروبها على ثوابت عسكرية معينة:

- الاعتماد بشكل رئيس على الضربات الجوية، خاصة وأن سلاح الجو الإسرائيلي هو الأقوى في المنطقة.
- القيام بضربة أولى خاطفة ومباغتة تشكل مدخلا لكسب المعركة.
- الحرص على إبقاء المعارك بعيدة عن المناطق الإسرائيلية، حيث تدور المعركة في أرض العدو فقط بعيداً عن داخل إسرائيل.
- إنزال أكبر قدر ممكن من الخسائر المادية والبشرية في صفوف العدو.

أولا: لبنان

في لبنان أبقت إسرائيل على قواتها داخل الشريط الحدودي، مستعينة بقوات جيش لبنان الجنوبي بقيادة أنطوان لحد. وإلى ربيع العام 2000، شنّت إسرائيل أكثر من عدوان وواجهت مقاومة عنيدة وشرسة في جنوب لبنان، تميزت بعمليات استشهادية وعمليات تفجير كانت تستهدف القوات الإسرائيلية والعملاء في مناطق الشريط الحدودي.

كان العام 2000 عام التراجع الإسرائيلي، عندما اضطرت الحكومة الإسرائيلية إلى سحب قواتها من جنوب لبنان تحت ضغط المقاومة تاركة العملاء يتخبطون من هول المفاجأة.

ومن المؤكد أن إسرائيل أخطأت في تقدير قوة حزب الله

ربما لم يدرك الإسرائيليون أن الانسحاب سيكلفهم غالياً، إذ بدلاً من شريط أمني يفصلهم عن العدو، باتت قوات المقاومة هي الحد الفاصل بين لبنان وفلسطين المحتلة. وعندما قررت إسرائيل الانسحاب من جنوب لبنان في ربيع العام 2000، كانت تعتقد، أنها بخطوة كهذه ستقلص من الأعباء العسكرية والمادية التي كانت تتكبدها في لبنان. وربما كانت القيادة الإسرائيلية قد بدأت بوضع مخطط جديد لتغيير قواعد اللعبة في لبنان، على نسق ما حصل في العام 1982.

حرب تموز/ يونيو 2006 (حرب لبنان الثانية)

في صيف العام 2006، قررت إسرائيل شن حربها الثانية على لبنان، كما أسمتها، متخذة من قيام حزب االله باختطاف جنديين إسرائيليين في جنوب لبنان ذريعة لها. استمرت الحرب المدمرة 33 يوماً، نفذت إسرائيل فيها عمليات تدمير ممنهج طال البشر والحجر، ولم تنس كعادتها في كل حرب، ارتكاب أكثر من مجزرة، كي تبقى علامة لا تنسى. انتهت الحرب بقرار صادر عن مجلس الأمن حمل الرقم 1701 وقضى بوقف الأعمال الحربية، لكن إسرائيل برغم ذلك لم تحقق أياً من الأهداف التي وضعتها قبل شن حربها.

الهدف المعلن للحرب كان إطلاق سراح الجنديين الإسرائيليين، أما الأهداف غير المعلنة فكان عنوانها القضاء على القدرات العسكرية لحزب االله، والادعاء بتنفيذ القرار 1559 المتعلق بإزالة أسلحة الميليشيات في لبنان وبسط سيادة الدولة خاصة في الجنوب وعلى المعابر مع سورية. وبدا هذا الهدف واضحاً مع تصريحات وزيرة الخارجية الأميركية حينها، كوندوليزا رايس عن شرق أوسط جديد سيتمخض عن هذه الحرب.

انتهت الحرب بعد 33 يوماً، انتقلت خلالها إسرائيل من الطرف القوي الذي يحاول تغيير المعادلة في منطقة الشرق الأوسط، إلى طرف يمارس الإجرام والقوة

انتقاماً من مقاومة وشعب ودولة، تصدت له وأجبرته على التراجع والقبول بوقف لإطلاق النار من دون تحقيق للأهداف.

واعترف الإسرائيليون أنهم واجهوا في حزب الله عدواً مدرباً ومنظماً يقاتل ضمن وحدات صغيرة وبأسلحة متطورة

ومن المؤكد أن إسرائيل أخطأت في تقدير قوة حزب االله، فدخلت الحرب معتقدة أنها ستتمكن في أيام من تغيير الوضع والقضاء على القوة العسكرية للحزب، ولم تكن القيادات الإسرائيلية في أسوأ الأحوال تتوقع أن تخوض حرباً طويلة، يضطر فيها الإسرائيليون إلى دخول الملاجئ والفرار إلى أماكن أكثر أمناً هرباً من صواريخ المقاومة التي لم تتوقف طوال أيام الحرب، والتي تمكنت لأول مرة من إصابة إحدى البوارج الحربية الإسرائيلية أمام الساحل اللبناني.

لماذا فشلت إسرائيل في تحقيق هذه الأهداف؟

كثيرة هي الدراسات التي تناولت الحرب بكل معطياتها ونتائجها، ومعظم هذه الدراسات خلصت إلى أن إسرائيل فشلت لسببين، الأول، لأنها لم تشن حرباً برية واسعة منذ اليوم الأول مكتفية بضربات جوية اعتقدت أنها ستكون ناجعة وكافية لتحقيق الأهداف، كما حدث في حرب 1982، أما السبب الثاني فهو بلا شك المقاومة الشرسة والمنظمة التي لم تمكن أقوى جيش في المنطقة من تحقيق أهدافه.

التقويم بعد الحرب

خلصت دراسة أعدها الجيش الأميركي عن أداء الجيش الإسرائيلي في أعقاب حرب تموز، إلى أن الجيشين الأميركي والإسرائيلي يواجهان حالات أمنية تفرض عليهما الاستعداد الدائم ضمن ما يسمى (قوس قزح النزاعات). وفي الحالة الإسرائيلية، رأت الدراسة أن التهديدات الأمنية يتم ترتيبها بحسب درجة الخطورة، إذ تتدرج من الضفة الغربية وقطاع غزة ، يليها الدول المجاورة لإسرائيل، في مرتبة أكثر خطورة وهي لبنان وسوريا، أما المرتبة الأخطر فتأتي من دول لا تملك حدوداً جغرافية مع إسرائيل، وتتمثل حالياً بإيران[1]، وبحسب التقرير، فإن إسرائيل نجحت في هذا الترتيب بداية عندما تمكنت من مواجهة الانتفاضة الثانية في فلسطين في العام 2000، لكن الحرب في لبنان أظهرت أن الجيش الإسرائيلي أخطأ كثيراً عندما ركز ◄

1-David E. Johnson, Military Capabilities for Hybrid War, insight from the Israel Defense forces in Lebanon and Gaza, prepared for the United States Army, RAND Corporation, 2010, p.2.

فقط على مواجهة خطر الداخل، ولهذا بدا عاجزاً في حرب لبنان وغير قادر على المناورة واستخدام القوات المشتركة، بمعنى التنسيق المشترك بين مختلف القوات الجوية والبرية في تنفيذ العملية العسكرية.

في عملية تقييمية لنتائج الحرب، بدا أن الإسرائيليين واجهوا في لبنان عدوين لم يستعدوا لهما، المقاومة والتضاريس، فيما كان حزب االله يقاتل فوق أرضه مالكاً القوة ومعرفة التضاريس. واعترف الإسرائيليون أنهم واجهوا في حزب االله عدواً مدرباً ومنظماً يقاتل ضمن وحدات صغيرة وبأسلحة متطورة، على حين في العمليات داخل فلسطين، لم تضطر أي وحدة عسكرية إسرائيلية لمواجهة قوات يتجاوز حجمها فرق المشاة الصغيرة. ويضيف التقرير الأميركي، أن الجيش الإسرائيلي خاض معركة من نوع مختلف ضد قوات لم تكن بقوة الجيش المنظم، لكنها لم تكن أيضاً عناصر ميليشيا تعمل فقط وفق حرب العصابات.

أما تقرير لجنة فينوغراد، فقد خلص إلى أن المشكلة تكمن في طريقة التفكير لدى بعض القيادات السياسية والعسكرية الإسرائيلية، التي اعتقدت أن إسرائيل بما تمتلكه من قوة عسكرية وتفوق يردع الآخرين، هي أبعد ما تكون عن التعرض لأي هجوم. وأن هذه القيادات كانت على يقين أنها في حال التعرض لأي اعتداء، فسيكون من النوع الأول، أي من الداخل. وعلى هذا الأساس تم تخفيض النفقات المخصصة للقوات البرية، وهو ما أثر سلباً في عمليات التدريب والاستعداد اللوجستي، فيما تم التركيز على وقف الهجمات الإرهابية باستخدام أسلوب الاغتيالات بما فيها الضربات الجوية بالتنسيق مع قوات الأمن الإسرائيلية[2]. وعلى هذا الأساس أوصى التقرير بإعادة الهيبة لقوة الردع الإسرائيلية.

2-David E. Johnson, Military Capabilities for Hybrid War, op.cit., pp. 2 -3.

وعليه، تحوّل الجيش الإسرائيلي إلى إجراء عملية تصحيح للأخطاء خاصة فيما يتعلق بإعداد القوات البرية، فيما استقال عدد من الجنرالات بمن فيهم رئيس الأركان، دان حالوتس، وطرد عدد آخر. وكانت الخطوة الأهم العودة إلى مفهوم العمليات الأساسية في التدريبات، وهو ما يتطلب تركيزاً على دور العمليات العسكرية المشتركة. ولهذا بدأ الجيش العمل على تطوير سلاح الدبابات، واستأنف إنتاج الميركافا المتطورة، وتم البدء بتنفيذ مناورات مشتركة بين القوتين الجوية والبرية.

هل ستنجح إسرائيل في حرب قادمة ضد لبنان؟

في عام 2009، بعد ثلاث سنوات من الحرب، رأى غيورا آيلاند، رئيس مجلس الأمن القومي في ديوان رئاسة الحكومة الإسرائيلية في دراسة تقويمية لحرب لبنان الثانية، أنه إذا نشبت غداً حرب لبنان الثالثة، فإنها لن تكون بنتائجها مغايرة تماماً لحرب لبنان الثانية، مشيراً إلى أنه على الرغم من كل الدروس التي استخلصت من الحرب على يد لجان عسكرية، وعلى الرغم من أن الجيش يعمل عليها منذ ثلاث سنوات، وعلى الرغم من أن الطرف الإسرائيلي يبدو الآن أفضل من الطرف الثاني، إلا أن نتائج الحرب لا تتعلق بجهة واحدة فقط. فمن الجهة المقابلة، حسّنَ حزب االله أيضاً من جاهزيته، ومن الناحية التكتيكية فإن التحسن الذي يطرأ على طرف يتقاطع مع التحسن في الطرف الآخر، وبهذا نصل بشكل أو بآخر إلى النتيجة نفسها[3].

ثانياً: فلسطين

بين عامي 2008 و2012 شنت إسرائيل حربين على قطاع غزة، أطلق على الأولى تسمية عملية الرصاص المصبوب، وعلى الثانية تسمية عامود السحاب. شنّت إسرائيل عمليتها الأولى نهاية العام 2008، وكانت الثانية في أواخر العام 2012.

وتظهر نظرة سريعة إلى الأوضاع في القطاع قبل الحربين ما يأتي:

• في العام 2005 قررت إسرائيل الانسحاب من القطاع وإخلاء المستعمرات التي وصل عددها إلى 21 مستعمرة، بعد 38 عاماً من الاحتلال.

• في العام 2007، سيطرت حركة حماس على السلطة في القطاع، وانقسمت المناطق الفلسطينية بين حكومتين الأولى في رام االله والثانية في غزة.

• أعلنت إسرائيل فرض الحصار على القطاع رداً على الوضع الجديد، وبهذا أصبح ما يقارب المليون ونصف فلسطيني تحت الحصار الخانق براً وبحراً وجواً، في منطقة لا تتجاوز مساحتها 360 كم^2.

في هذا السياق يصف الكاتب الإسرائيلي، آفي شلايم، غزة بحالة كلاسيكية من حالات الاستغلال الاستعماري في حقبة ما بعد الاستعمار. فقبل عام 2005، كان عدد المستوطنين الذي يسكنون المستوطنات في القطاع، 8 آلاف نسمة في مقابل حوالي مليون ونصف فلسطيني، ومع ذلك كان المستوطنون يحتلون 25%

3 - المراجعة الإسرائيلية لحرب تموز بعد ثلاث سنوات، ندوة مركز دراسات الأمن القومي الإسرائيلي، في: مجلة معلومات، ترجمة وتقديم حلمي موسى، بيروت، المركز العربي للمعلومات، العدد 70، آب/ أغسطس 2009، ص 22.

من الأراضي، و40 % من الأراضي الصالحة للزراعة، وعلى حصة الأسد من الموارد المائية. أما سكان غزة، فكانوا يعيشون في فقر مدقع وبؤس لا يمكن تصورهم، إذ يعيش (80 %) منهم على أقل من دولارين يومياً، ولا تزال الأوضاع المعيشية في القطاع تشكل إهانة للقيم المتحضرة، ومحرّضاً على المقاومة، وأيضاً تربة خصبة للتطرف السياسي[4]. وبعد ثلاثة أعوام من الانسحاب، قتل (11) إسرائيلياً بنيران الصواريخ الفلسطينية، وفي المقابل قتل الجيش الإسرائيلي بين 2005 - 2007، نحو (1290) فلسطينياً، بمن فيهم 222 طفلاً[5].

أن التكلفة الاستراتيجية للعملية في غزة فاقت المكاسب التكتيكية التي حققتها إسرائيل

4 - آفي شلايم، الحرب الإسرائيلية على غزة، كيف أوصلت إسرائيل غزة إلى شفا كارثة إنسانية، مجلة الدراسات الفلسطينية، المجلد 20، العدد 77، شتاء 2009، ص 80.

5 - المرجع نفسه.

عملية الرصاص المصبوب:

كان الهدف المعلن لعملية الرصاص المصبوب عشية العام 2009، استعادت الهدوء على الحدود الجنوبية للمناطق الإسرائيلية التي كانت عرضة لصواريخ المقاومة وإطلاق سراح الجندي جلعاد شاليط، بعد توجيه ضربات قوية للمقاومة والقضاء على ما أمكن من منصات إطلاق الصواريخ.

أما الهدف غير المعلن، فكان يستهدف القضاء على سلطة حركة حماس في القطاع وتغيير قواعد اللعبة.

• بدأت العملية في كانون الأول/ ديسمبر 2008، بضربات جوية مكثفة استهدفت مناطق مختلفة من القطاع، وفق ما يعرف (بالضربة الأولى)، موقعة خسائر كبيرة بالأرواح والممتلكات.

• في المرحلة الثانية، أعلنت إسرائيل البدء بتنفيذ عملية برية ضد القطاع، مستفيدة من دروس بعد حربها على لبنان في العام 2006.

• انتهت العملية الإسرائيلية في شهر كانون الثاني/ يناير بعد 23 يوماً، وبعد صدور القرار 1860 عن مجلس الأمن الدولي الذي دعا إلى وقف لإطلاق النار، من دون تحقيق أهدافها.

• اتهم تقرير القاضي ريتشارد غولدستون إسرائيل بانتهاك القانون الدولي الإنساني في أثناء الحرب، من خلال استهدافها للمدنيين واستخدامهم كدروع بشرية، فضلاً عن استخدام أسلحة محرمة دولياً.

إذا كان الهدف الرئيس من هذه الحرب لم يتحقق، إلا أن القوات الإسرائيلية استطاعت إنزال خسائر كبيرة في الجانب الفلسطيني، إذ تمكنت من هدم أكثر من (75 %) من الأنفاق، ودمرت البنية التحتية للقطاع التي يستفيد منها المقاومون. وفي هذا الأمر خسارة لوجستية لا شك فيها من شأنها أن تؤثر، وإن بدرجة محددة، في فعالية الأداء المقاوم.

لكن الأهم أن العدوان لم يمس بإرادة القتال بل رفع معنويات التنظيمات والمقاومين والشعب. وكذلك منح المقاومة خبرة تجعلها أكثر قدرة على خوض معارك مماثلة ستفرض عليها طالما أن إسرائيل ماضية في احتلالها للأرض الفلسطينية[6].

6 - العميد أمين حطيط، الأداء العسكري لحركة حماس وفصائل المقاومة خلال العدوان، في: دراسات في العدوان الإسرائيلي على قطاع غزة، عملية الرصاص المصبوب/ معركة الفرقان، تحرير عبد الحميد الكيالي، بيروت: مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات، ص 117.

التقويم بعد العملية

عدّ انتوني كوردسمان، وهو أحد كبار المحللين العسكريين لشؤون الشرق الأوسط، وصديق لإسرائيل، في تقرير له، أن التكلفة الاستراتيجية للعملية في غزة فاقت المكاسب التكتيكية التي حققتها إسرائيل، مشيراً إلا أنه كان على إسرائيل توجيه ضربات انتقائية ضد مرافق أساسية تابعة لحماس. ورأى أن إسرائيل قد تورطت في حرب جرى تصعيدها من دون هدف استراتيجي واضح، أو على الأقل من دون هدف تستطيع تحقيقه واقعياً، معتبراً أن القيادة السياسية الإسرائيلية ممثلة بالثلاثي، أولمرت وليفني وبراك، قد اتخذت مواقف متشددة وادعت بتحقيق مكاسب تكتيكية، إلا أنها بلا شك ألحقت العار بإسرائيل[7].

7 -هنري سيغمان، الحرب الإسرائيلية على غزة، أكاذيب إسرائيل، مجلة الدراسات الفلسطينية، المجلد 20، العدد 77، شتاء 2009، ص 85.

وبعد فشل العملية البرية، كثرت التسؤالات حول الاستعدادات الإسرائيلية لهذه المعركة، ومدى

الاستفادة من أخطاء حرب لبنان الثانية. ونلتفت هنا إلى، أن الجيش الإسرائيلي كان قد عمد إلى إجراء تدريبات مكثفة قبل العملية، إذ قام ببناء مدينة وهمية في منطقة النقب، الهدف منها تدريب القوات البرية بشكل كاف. وكانت هذه المدينة بحجم مدينة حقيقية بشوارعها التي تحمل نفس الأسماء، وجوامعها وأبنيتها العامة، وبلغت تكلفة بناء هذه المدينة 45 مليون دولار أميركي[8]. وعلى الرغم من ذلك بدا أن هذا الجيش لم يستفد كثيراً من هذه التدريبات.

8-Ilan Pappé :The killing fields of Gaza 2004 – 2009. in: Noam Chomsky & Ilan Pappé. Gaza in Crisis. 2010. reflections on Israel's war against the Palestinians. edited Haymarket Books. pp. 175- 176. by Frank Barat. US.

عملية عامود السحاب:

بعد أقل من أربع سنوات شنّت إسرائيل حرباً جديدة ضد غزة في شهر تشرين الثاني/ نوفمبر 2012، بعد سلسلة من التهديدات على مختلف المستويات السياسية والعسكرية بتوجيه ضربة لحركة حماس وقوات المقاومة في قطاع غزة. وقبيل العملية، بدا الوضع في قطاع غزة على حافة الانفجار، لكن إسرائيل لم تشن عملية عسكرية مباغتة هذه المرة، بل عمدت إلى سياسة الاغتيالات من جديد، وقد ذكر الهدف أحد كبار القادة العسكريين في حركة حماس، أحمد الجعبري. أنّ إسرائيل راهنت على رد الفعل الفلسطيني كي تشن العملية العسكرية التي بدأت بعدما أعلنت الفصائل الفلسطينية نهاية التهدئة مع إسرائيل.

فانشغال سورية ومصر بأوضاعهما الداخلية غير المستقرة، سيمنع الدولتين من التركيز على الأوضاع المحيطة

قبل العملية بعدة أشهر، أوصى مركز بيغن– السادات للدراسات الاستراتيجية بتوجيه ضربة لحركة حماس في قطاع غزة تهدف إلى استعادة قوة الردع بعد عملية الرصاص المصبوب. ولخصت دراسة نشرها المركز الأسباب المفترضة لشن حملة حاسمة ضد قطاع غزة بالآتي:

- أهمية تدمير البنية العسكرية لحماس والقوى التي تطلق النار على إسرائيل.
- أهمية محاربة القوات الإسلامية الصاعدة في المنطقة.
- التمهيد لضرب المفاعلات النووية الإيرانية.

وبما أن إسرائيل تنوي توجيه ضربة لإيران، عدت الدراسة أن حملة كهذه على القطاع من شأنها حماية إسرائيل من الصواريخ التي قد تنطلق من غزة لاحقاً انتقاماً لإيران، وأبعد من ذلك، فضرب غزة، سيشكل عامل ردع في وجه أي خطر قادم من لبنان أيضاً.

وفي تقويمها للأوضاع المحيطة، رأت الدراسة أنه الوقت المناسب لضرب غزة، فعلى الصعيد الداخلي تبدو الأوضاع مستقرة وبمقدور الحكومة الحصول على تأييد شعبي كبير لحربها ضد الإرهاب، فيما تبدو حركة حماس، بالمقابل، ضعيفة ومنقسمة، ولاسيما أن علاقتها متوترة مع دمشق وإيران. أما عربياً، فانشغال سورية ومصر بأوضاعهما الداخلية غير المستقرة، سيمنع الدولتين من التركيز على

الأوضاع المحيطة، وأن نجاح إسرائيل، سيعطي صورة واضحة للحكام القادمين في سورية ومصر عن مستوى القوة الإسرائيلية.

أما بالنسبة الى الحليف الأكبر، أي الولايات المتحدة الأميركية، فعدت الدراسة، أنه الوقت الأنسب لإسرائيل لشن حرب ضد غزة، مستبقة الانتخابات الأميركية بعد ثمانية أشهر، لأن الولايات المتحدة لن تعمد إلى تحريك المجتمع الدولي ضد إسرائيل قبل الانتخابات.

وبما أن الدراسة عدت نجاح الحملة الإسرائيلية أمراً واقعاً، فعلى الجيش الإسرائيلي، المبادرة إلى احتلال معبر فيلادلفي على الحدود مع مصر، لمحاصرة غزة ومنع قيادات حماس من الهرب خارج القطاع.

أما بالنسبة الى الرأي العام الدولي، أو ردة الفعل الدولية تجاه عملية كهذه ضد قطاع غزة، فكان استنتاج الدراسة معبراً عن مدى الشعور الإسرائيلي بالتفوق والفوقية تجاه المجتمع الدولي، إذ أكدت أنه في مجال العلاقات الدولية يثير الضعيف الانتقادات من حوله، أما القوة والنجاح فيفرضان الاحترام، وفي بعض الأحيان يحققان التأييد والدعم الخارجي[9].

9-The Opportunity in Gaza, Prof. Efraim Inbar and Dr. Max Singer, BESA Center Perspectives Paper, No. 167, March 15, 2012.

• استخدمت إسرائيل أسلحة جديدة وأوقعت خسائر كبيرة في الأرواح وأحدثت دماراً كبيراً في مختلف أنحاء القطاع.

• أحجمت إسرائيل عن شن عملية برية ضد القطاع على عكس ما كان متوقعاً،

• الرد الفلسطيني كان مفاجئاً هذه المرة، إذ سقطت الصواريخ على المستعمرات والمدن الفلسطينية متخطية المدى المتوقع لتصل لأول مرة في تاريخ الصراع إلى وسط إسرائيل وتحديداً إلى القدس وتل أبيب، محدثة حالة من الرعب داخل المجتمع الإسرائيلي، وتغييراً جديداً في موازين القوى.

• التدخل العربي كان مختلفاً هذه المرة بعد تغير الأوضاع في مصر، إذ أُعلنت التهدئة بعد مفاوضات أدارتها مصر بمنطلق مختلف عن نظام حسني مبارك.

التقويم بعد العملية

برغم الإخفاق الواضح من الجانب الإسرائيلي، والفشل في تحقيق أهداف العملية، خاصة بعدما ظهرت المقاومة الفلسطينية بمظهر المقاوم القوي القادر على التصدي والرد، حرصت القيادة الإسرائيلية خاصة على المستوى السياسي، ◀

على الإصرار أن العملية حققت الهدف المرسوم، وأن الجيش الإسرائيلي تمكن من إعادة الهدوء والأمن إلى المناطق الإسرائيلية عن طريق تحقيق الردع في وجه الفسطينيين. ونقرأ في هذا المجال تحليلاً إسرائيلياً يوضح أسباب عدم قيام إسرائيل بشن عملية برية ضد القطاع وإعادة احتلاله، معتبراً:

• أن إسرائيل قد تضطر عندها إلى تسليم القطاع إلى السلطة الفلسطينية وهو أمر لا يناسب الإسرائيليين لأن السلطة الفلسطينية ضعيفة وغير قادرة على المفاوضة.

• الحل الأنسب للوضع في غزة، أن يكون مشابهاً لما قبل 1967 مع الأخذ بالحسبان الواقع المستجد ما بعد العام 2005، أي غزة شبه مستقلة مرتبطة بمصر، لكن من دون السماح بسيطرة مصرية على القطاع، إذ يجب أن يبقى التدخل المصري محدوداً ومدروساً. وبما أنه من الصعب تحقيق أي من هذه الحالات في الوقت الحاضر، تبقى غزة المعضلة الحقيقية التي تواجه القيادة الإسرائيلية[10].

10-Israel's Dilemma in Gaza. Prof. Shmuel Sandler. BESA Center Perspectives Paper No. 191. December 6. 2012.

دروس واستنتاجات:

هكذا حاربت إسرائيل على جبهتين، إذ شنت ثلاث حروب خلال ست سنوات، أكبرها ضد لبنان، وفي الحروب الثلاثة لم تحقق الأهداف الاستراتيجية الموضوعة. وإن كانت هذه الحروب أدّت، إلى قرارين دوليين لوقف العمليات الحربية، وإلى هدنة تؤمن الهدوء النسبي على الحدود مع قطاع غزة ومع لبنان، إلا أنها إلى الآن، لم تتمكن من القضاء على الخطر الذي يهدد أمنها على الجبهتين، بل على العكس، تصاعدت موجة العداء لإسرائيل، وتزايدت الانتقادات الداخلية في الجانب الإسرائيلي نفسه.

إلا أنه على الرغم من هذه الإخفاقات العسكرية، إلا أن إسرائيل حققت ما يلي من خلال حروبها الثلاث ما يأتي:

على المستوى السياسي:

• حصلت على دعم أميركي متزايد، في مواجهة خطر الإرهاب الذي يتهدد أمنها.

• ازدادت قوة اليمين المتطرف في مواجهة القوى الأخرى.

• بعثت برسائل إلى الدول المعنية، وبشكل خاص إيران بوصفها الداعم

الرئيس لحزب االله.

وحركتي حماس والجهاد الإسلامي، وإلى مصر، بوصفها الدولة المجاورة للقطاع.

• اختبرت ردة الفعل المصرية في عملية عامود السحاب، بعد استلام الأخوان المسلمين

• للسلطة في مصر.

على المستوى العسكري:

• وفرت لها هذه الحروب، ظرفاً مناسباً لتجربة أنواع جديدة من الأسلحة.

أن الانتصار في حرب مع إسرائيل صاحبة الجيش (الذي لا يقهر) يقاس بمدى تحقيق إسرائيل لأهدافها العسكرية

• اختبرت مدى قدرة نظام (القبة الفولاذية) في اعتراض الصواريخ القصيرة المدى.

• اختبرت مدى جاهزية وقدرة المقاومة في لبنان وقطاع غزة، ونوعية الأسحلة المتوفرة لديها.

هذا على الصعيد الإسرائيلي، فماذا بالنسبة إلى حزب االله والمقاومة الفلسطينية؟

لا شك في أن الجانبين تكبدا خسائر كبيرة، فآلة الحرب الإسرائيلية حصدت الآف الشهداء من المدنيين والعسكريين، وتسببت بخسائر اقتصادية كبيرة في لبنان وقطاع غزة، لكن الطرفين في المقابل حققا مكاسب لا يمكن تجاهلها:

• أظهرت قوى المقاومة صموداً لافتاً في وجه جيش من أقوى جيوش المنطقة.

• أثبتت قدرة الحركات المقاومة على القتال وخوض المعارك الطويلة بنفس طويل.

• أثبت حزب االله أن مقاتليه بإمكانهم القتال بحرفية وتنظيم عاليين على نسق الجيوش المدربة، فيما برهن مقاتلو غزة، وعلى رأسهم مقاتلو حركة حماس والجهاد الإسلامي عن قدرة ومهارة عالية في استخدام الصواريخ المتطورة، وفي تصنيع الصواريخ القصيرة المدى محلياً.

• فاجأ الطرفان إسرائيل بقدرتهما على ضرب العمق الإسرائيلي ومن ثَمّ فرض معادلة ردع متبادل، حتى لو كانت معادلة غير متكافئة.

• بعد عملية عامود السحاب، ارتفعت الأصوات الفلسطينية المطالبة

بالوحدة بين الفصائل ولإنهاء الانقسام بين السلطة الفلسطينية وحركتي حماس والجهاد الإسلامي.

أما المكسب الأهم في الإطار العام، فهو المزيد من الالتفاف الشعبي حول مفهوم **المقاومة المسلحة**، التي أثبتت أنها الوحيدة القادرة على التصدي للأطماع الإسرائيلية. وقد أظهر استطلاع للرأي العام أجراه مركز القدس لـ علام والاتصال بعد أسبوعين من نهاية عملية عامود السحاب، ارتفاعاً في نسبة المؤيدين للمقاومة المسلحة بين الفلسطينيين، وأهم ما جاء في الاستطلاع:

- عدّ أكثر من (70 %) أن حركة حماس انتصرت في المعركة، في مقابل (47 %) فقط كان لهم نفس الرأي بعد عملية الرصاص المصبوب عام 2009.
- عدّ (74 %) من الفلسطينيين أن الصواريخ المحلية الصنع فعالة، في مقابل (25،4 %) فقط سابقاً.
- ارتفعت نسبة المؤيدين للعمليات العسكرية ضد إسرائيل رداً على العدوان إلى(50،9 %) مقابل(29،3 %) سابقاً[11].

11 - مركز القدس للإعلام والاتصال، 10/ 2/ 2013، http://www.jmcc.org/Documentsandmaps.aspx?id=85

إلا أننا يجب أن نتذكر دائماً أن إسرائيل دولة قامت أساساً على العدوان والتوسع، ما يعني أنها بلا شك تعد للمعركة القادمة، لكن ما لا شك فيه، أن القيادة الإسرائيلية ستفكر كثيراً وتعيد حساباتها جيداً قبل القيام بأية خطوة عسكرية جديدة، فالحرب لم تعد نزهة أو مجرد ضربة خاطفة تشل قدرات الطرف المقابل، فهذا الطرف المقابل، يزداد قوة واستعداداً يوماً بعد يوم لأنه يعلم جيداً أن (الهدنة) واقع مؤقت مع إسرائيل، وقد أثبتت العمليات العسكرية ضد لبنان وقطاع غزة، أن مفهوم الردع الإسرائيلي يكون أكثر فاعلية في مقابل الدول والجيوش النظامية، وأن الحرب ضد حركات المقاومة تختلف كثيراً عن مفهوم الحرب التقليدية التي تخوضها الجيوش النظامية.

يبقى أن نشير إلى أن الانتصار في حرب مع إسرائيل صاحبة الجيش (الذي لا يقهر) يقاس بمدى تحقيق إسرائيل لأهدافها العسكرية، وهي التي اعتادت تحقيق أهدافها بسهولة وحرية. فكلما فشلت هذه القوة، من تحقيق أهدافها المرسومة في أية عملية عسكرية، وكلما اضطرت إلى القبول بهدنة مؤقتة بعد مفاوضات وتدخلات، فهذا يعني بالتأكيد أن الطرف الآخر قد انتصر في المعركة.